العرب
الخميس 2019/08/22
السنة 42 العدد 11444

الفن أكثر من عمل فني.. حينما يتحول إلى أيقونة

التكنولوجيا لم تهزم الأسطورة.. من منا لا تبهره عروض السحر

يخطئ من يعتقد أن الرمز ارتبط بالإنسان البدائي، نعم استخدم الإنسان البدائي الأقنعة، بدلالاتها الرمزية في الحرب وفي السلم. هذا الاستخدام، وإن طوّر شكلا، لا يزال مستخدما في حياتنا الحديثة، لم تختف الكتابات والرسوم عن أسلحة العصر الحديث، وهنا تكمن قوة الفن، الفن عندما يصبح أيقونة، ليس بقرار يصدر عن البشر، ولكن لقوة كامنة غامضة في العمل الفني يصعب تفسيرها.

«ألست إنسانا، ألست أخا» صرخة ويدجوود ضد العبودية

علي قاسم
كاتب سوري

إن كان بيننا من يعرف جوسيا ويدجوود، فهو يعرفه فقط باسمه الثاني، الذي ارتبط بصناعة الخزف، وبتقنية خاصة تعتمد الروليف الأبيض على خلفية غالبا ما تكون زرقاء.

> لوحة بيكاسو «جورنيكا» تحولت إلى أيقونة شاهدة ليس فقط على مجزرة طالت بلدة إسبانية صغيرة بل على مآسي عصر

ويدجوود الإنكليزي، الذي ولد وعاش في مقاطعة ستوك أون ترينت الإنكليزية، المعروفة بأنها عاصمة صناعة أجود أنواع الخزف، تردد اسمه في وكالات الأنباء منذ يومين، وأشير إليه بأنه صانع للفخار. وقد يكون هذا مجرد التباس في النقل إلى العربية، الفخار يختلف عن الخزف. فمعظم نساء الريف يصنعن أواني فخارية، ولكن لا تصنع أيّ منهنّ أواني خزفية. وهذا مجرد توضيح.

لوحة سياسية

من هو ويدجوود، الذي يجهل معظمنا اسمه الأول، جوسيا، وليس جوساياه، كما كتبه البعض.

عرف جوسيا بنضاله ضد العبودية، وتبرع بجزء كبير من ثروته لإقامة مستعمرات تؤوي العبيد المحرّرين، إلاّ أنه لم يعش ليرى نهاية العبودية، الهدف الذي ناضل طويلا من أجله، والذي تصادف ذكراه السنوية يوم 23 أغسطس، وبهذه المناسبة قام فريق من الخبراء بترميم لوحة نادرة لعبد أفريقي جاث على إحدى ركبتيه ومقيد بالسلاسل ينظر مبتهلا إلى السماء.

تستند اللوحة التي تحمل عنوان "ألست إنسانا، ألست أخا" إلى تصميم وضع بتكليف من لجنة إلغاء تجارة الرقيق عام 1787، واستخدمه ويدجوود لتصميم بروش وقلادة ودبوس تتزيّن بها النساء، في حملة ضد العبودية، مما جعل اللوحة من أول الشعارات التي استخدمت لنصرة قضية سياسية، ولتتحوّل مع الزمن إلى أيقونة فنية مجهولة الأصل، كما هي كل الأيقونات.

هناك توق أزلي يدفع البشر إلى إضفاء قيمة معنوية على أشياء عادية ومألوفة، قد تكون تجليات طبيعية، أو كائنات حية، أو حتى بشرا مثلهم، خياليين أو حقيقيين أو مزيجا من الخيال والحقيقة. أضفى السابقون صفات إلهيّة على قوى الطبيعة، وشيدوا أبنية قدسوها، وأصبغوا على كائنات حية قيما وصلت هي الأخرى إلى حد التقديس.. بدءًا بالقطط وانتهاءً بالبقر.

ودأبت الشعوب على كتابة الملاحم والأساطير، وتغنت ببطولات أبطال وهميين، لن يستطيع مؤرخ أن يثبت أن الزير سالم وعنترة شخصان حقيقيّان من لحم ودم، حتى الشاعر اليوناني هوميروس مشكوك في أمره، وكذلك الحال مع شخوص ملحمته الإلياذة والأوديسة وأخيل وأوديس.

هذا التوق إلى التقديس، لم يختف عند إنسان القرن العشرين والحادي والعشرين، ولم تستطع التكنولوجيا التغلب على الأسطورة.. من منا لا تبهره عروض السحر.

الإنسان كائن عاقل وكائن خرافي في آن واحد، كائن يميل إلى الرمز.. أليست الأحرف، والأرقام، والأعلام، والشعارات، والنصب، والأزلام، دليلا على نزوع البشر إلى الرمز والتبسيط والانتقاء؟

أسماء رموز

مئات الصور التقطت لفظائع الحرب الفيتنامية، واحدة فقط من بينها، تظهر طفلة عارية في التاسعة من العمر، هاربة على الطريق تصرخ ألما وفزعا بعد هجوم بالنابالم على بلدتها، حازت جائزة "بوليتزر"، وتحوّلت إلى أيقونة، أيقونة تدين فظائع الحروب.

أرنستو تشي جيفارا، إرهابي في نظر البعض، وبطل في نظر آخرين، تحوّلت صورة له، بسيطة ومختزلة، إلى أيقونة دون سائر الصور. الصورة أصبحت أهم من الشخص الذي تشير إليه، ستجدها على القمصان ومعلقة على الحيطان في الحانات والمقاهي، أيقونة للتمرد والحرية.

أعمال فنية كبيرة لفنانين كبار، تجاوزت قيمتها الفنية، حدث ذلك في الأدب وفي المسرح وفي الرسم.. أوديب، بطل سوفوكليس، تحوّل إلى أيقونة في علم النفس، ودونكيشوت، بطل سرفانتس، أصبح رمزا للمريض النفسي الذي يختلق أعداء وهميين يقاتلهم، وزوربا، تحوّل إلى رمز لحب الحياة.

ثورة يوليو 1830 الفرنسية اختارت لوحة للفنان أوجين ديلاكروا بعنوان "الحرية تقود الشعب" أيقونة لها.. امرأة عارية الصدر، متمردة تبدو عليها ملامح الفخر، ترفع راية الحرية وتقود الناس نحو النصر. المرأة هنا تجسيد استعاري وتصوير لإلهة الحرية، وترمز إلى الصواب والعقل والحرية والأمة والوطن والقيم المدنية ضد كل أشكال الدكتاتورية، تحوّلت إلى شعار وطني للجمهورية الفرنسية، يظهر وجهها على شعار الحكومة الرسمي، كما أن وجهها مصكوك على العملات المعدنية ومنقوش على الطوابع البريدية الفرنسية، وتستخدم على الوثائق الحكومية.

رسم ديلاكروا اللوحة كمساهمة شخصيّة منه في الثورة، فعوضا عن حمل البندقية حمل الفرشاة ورسم لوحة هي الأشهر والأكثر تعبيرا عن الثورة، قائلا "إن لم أقاتل من أجل وطني، على الأقل سأرسم له".

بابلو بيكاسو، الإسباني، مسحورا بسحر الأقنعة الأفريقية، بدأ مغامرته التكعيبية، لتبلغ قمة النضج مع المهمة التي أسندت إليه عام 1937، لتزيين جناح إسبانيا في معرض باريس الدولي. المهمة بدأت بلوحة، لتتحوّل إلى أيقونة شاهدة ليس فقط على مجزرة طالت بلدة إسبانية صغيرة بل على مآسي عصر.

في صبيحة يوم السادس والعشرين من شهر أبريل 1937، استيقظت إسبانيا على حادثة تعرف باسم "يوم السوق"، مسرحها بلدة صغيرة في إقليم الباسك، تعرف باسم "جورنيكا". في ذلك اليوم تحوّلت المدينة إلى ركام، عندما تعرضت لقصف من قبل طائرات هتلر.

لم يكن في البلدة مقاتلون، الرجال غادروها إلى جبهات القتال، فقط كان فيها نساء وأطفال وشيوخ، لم ينج منهم أحد.. أراد هتلر اختبار القوة التدميرية لنوع من القنابل الحارقة على السكان الأحياء.. هكذا ولدت اللوحة، هكذا ولدت الأيقونة.. وهكذا اختزل بيكاسو العذاب في لوحة.

البعد الإنساني في اللوحة يتعدى ما حدث في بلدة جورنيكا، فقد أنجزها بيكاسو وذكريات الحرب الأهلية الإسبانية والمجازر التي ارتكبها الجنرال فرانشيسكو فرانكو لا تفارق مخيلته. ومن سخرية الأقدار أن بيكاسو الذي غادر إسبانيا إلى فرنسا، مصرّحا بأنه لن يعود إلى بلاده إلاّ بعد رحيل فرانكو، توفي عام 1973، قبل وفاة فرانكو بعامين.

غدا سيحتفل العالم بالذكرى السنوية لإلغاء العبودية، في انتظار يوم يحتفل فيه بذكرى انتهاء الحروب والقمع والدكتاتوريات، لترتاح أرواح فنانين كبار قدموا لنا أعمالا فنية حولتها الشعوب إلى أيقونات.

بيغماليونات العصر لا يتساءلون: ماذا لو كان قدر الحب أن يكون غير ميكانيكي؟

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

عندما طلب النحات بيغماليون غير المهتم بالنسوة المحيطات به من فينوس أن تحوّل منحوتته التي أغرم بها إلى امرأة حقيقية، هل كان يدري تماما ماذا يطلب؟ وكيف سيكون التواصل مع المرأة/التمثال التي لم يكن لها تاريخ إلاّ اللحظة التي مُنحت فيها الحياة؟

أشعلت هذه الأسطورة خيال الفنانين ولا زالت إلى الآن. ومن أجمل الأعمال تلك التي أبدعها الفنان جان ليون جيروم ولوحة لبول ديلفو التي يعكس فيها القصة حيث تغرم المرأة بتمثال. وتبقى أجمل اللوحات على الإطلاق عبارة عن أربعة أعمال أبدعها سير إدوارد برن جونز وتسرد رواية حب قصوى بين بيغماليون وغالاتيا وفصول تحوّلها إلى الحياة.

يمكننا اعتبار قصة بيغماليون قصة معاصرة جدا من خلال تمعننا في رغبة الإنسان المعاصر في الابتكار والعمل على اختراع كائنات الذكاء الاصطناعي، انطلاقا من رغبة واحدة وإن تعددت أشكالها حتى صعوبة تعدادها والخوض فيها هنا، وهي الرغبة في "السعادة".

سعادة هي مطلقة، إذ تدرج في جدولها لائحة من المعاني تطول ربما إلى ما لا نهاية ومن معانيها بالتأكيد: السعادة في الحب البشري.

أمام رغبة "بيغماليونات" في اجتراح الهناء البشري، هل أقيمت تساؤلات حول ماذا لو تحقّق لهم بناء كائن خارق الذكاء أرادوه متمكنا من ذكاء عاطفي ومشاعر تؤهله لأن يكون المرأة المثالية البديلة أو الرجل المثالي البديل؟

ما يتمناه بيغماليونات العصر يفوق ما حقّقوه من صناعة كائنات خارقة الذكاء لاستخدامات جنسية آلية وواهية. ونقصد هنا بالأبعاد العاطفية الإنسانية تلك التي لم تنجُ من محاولات حثيثة لابتكارها ودمجها في كائنات الذكاء الاصطناعي، محاولات إن كانت تدل على أي شيء، للوهلة الأولى، فهي تدل على عمق الفراغ العاطفي والوحدة التي أصبحت بعد الاكتئاب مرض العصر.

هل ستنقذ تلك الابتكارات احتضار الحب الإنساني؟ لا بل في ظل ضوء هكذا افتراضات، ماذا بات تعريف الحب في الزمن الذي نعيش فيه؟ وكيف سيتمكّن هؤلاء المبتكرون من أن يملأوا الهوة الفارغة القائمة بين ما نشكّل كبشر من تجارب معيشية وخلافات نفسية وتاريخية وثقافية واجتماعية، وما يمكن أن تقدّمه حسابات إلكترونية صنيعة مزاج وخلفية أصحابها ومعرضة للإخفاق الدراماتيكي الحاسم في أدنى تفصيل في العمليات الحسابية؟

المتحمسون لاختراع كائنات ذات مشاعر هم مدركون، على الأقل حتى الآن، أنه عندما "تعبر" تلك الكائنات عن مشاعرها من فرح وحزن وحب، فهي لا تشعر بها فعلا، بل هي تتصرّف ظاهريا بها حسب عمليات حسابية لقنتها أن تظهر ما لا تشعر به فعلا.

فيلم «أجنحة الرغبة» سلط الضوء على فكرة الخلود عبر تعاسة الملائكة

ويقول أحد العلماء إن تلك الآلات لن تشعر بمشاعر إنسانية، لأنها لن تملك أجسادا كأجساد البشر. وهنا يلقي هذا العالم الضوء على أثيرية هذا اللغز المتمثل في التيارات غير المحدودة التي تعصف بالأجساد البشرية حتى وهي ساكنة يغلبها النوم. ويأخذنا كلامه إلى كلام المتصوّفين وإيمانهم بأن الكون أجمع هو في خلايا الإنسان المهولة التعقيد.

ومن ناحية ثانية أين تجيء مكانة "الروح" من كل هذا؟ وماذا يريد تماما البشر ولا يمكن تحقيقه من ضمن إنسانيتهم، الخلود؟ وكم من قصص روائية سردت كيف ملت الملائكة من الأبدية وتمنت حياة البشر. نذكر هنا فيلما رائعا "أجنحة الرغبة" للمخرج فيم فيندرز (إنتاج 1987)، والذي يسلّط الضوء على فكرة الخلود عبر "تعاسة" الملائكة.

وفي هذا السياق نذكر أيضا عالما فرنسيا كان تابعا للمدرسة "الميكانيكية" في الفلسفة والعلم، ثم تحوّل إلى مؤمن بالغيبيات أمام عملية بسيطة جدا في ظاهرها، وهي تقشيره تفاحةً.

باختصار وتبسيط شديدين، ذكر أنه في أحد الأيام تأمّل في تفاحة على طاولة أمامه وهي كيان فيزيائي. فأخذ يقشّرها لينفذ إلى "لب" ما يكوّنها، أي حقيقتها، فإذا به يصل إلى بذرتها التي تمكن بسهولة من تحطيمها، ليبقى هو أمام "اللاشيء". عندئذ توقّف مُدركا أن أصل كل شيء هو "هيولى حيّة" لا يمكن الإمساك بها.

نجد الآن ذاتنا في مكان بيغماليون الأصلي، إن كنا مقتنعين بأنه لا سبيل لمعاكسة التطوّر، فعلينا أن نسأل: ماذا نريد تماما من التكنولوجيا المُتسارعة التقدّم؟ وماذا ستكون طبيعة العلاقة التي ستربطنا بتلك الكائنات الذكية؟

> سير إدوارد برن جونز أبدع أربعة أعمال تسرد رواية حب قصوى بين بيغماليون وغالاتيا وفصول تحولها إلى الحياة

علينا أن نواجه أسئلة قد يكون طرحها على ذاته بيغماليون ثم تغاضى عنها، وإلاّ سنساهم بشكل مباشر في جعل الكائنات الذكية ليست شبيهة بنا، بل في تشكيل صورتنا كبشر على مثالها، وليس العكس.

وتبقى لوحات الفنان سير إدوارد برن جونز الأربع التي جسّد خلالها قصة بيغماليون هي الأروع، ليس لجماليتها فقط، بل للعناوين الشعرية التي أعطاها لها: "القلب يشتهي"، "اليد تتمنّع"، "الآلهة تُحيي" و"الروح تحصل". وحبذا لو أضاف الفنان لوحة خامسة عنونها بالمقولة التي اجتاحت الأفلام والروايات واللوحات "حذار ممّا تتمنى لربّما تحقّق". فقد ننتهي أكثر حزنا وشقاء ممّا كنا عليه قبل أن تتحقّق أحلامنا.